أبو يوسف وكتاب الخراج

للأستاذ أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الأول

القاضى أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم ، جده الثالث سعد بن حبتة الأنصارى ، أحد صحابة الرسول صلوات الله عليه .

ولد بالكوفة سنة ثلاث عشرة ومائة ، من والدين فقيرين دفعا به إلى قصاب يدربه ، ولكنه منذ حداثة سنه كان مولعاً بالاختلاف إلى رجال الحديث والفقه والأدب ، وكانت الكوفة فى ذلك الحين تموج بعلمائها وأدبائها ولم تكن بغداد قد نافستها فى ذلك ، حتى إذا كبر أخذ الحديث عن رجال شهروا بالحفظ والضبط : من أمثال أبى إسحق الشيبانى ، وسليمان التيمى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأخذ الفقه عن محمد بن أبى ليلى ، وأبى حنيفة ، ولم تقتصر دراسة أبى يوسف على الحديث والفقه ، بل كان يجيد غيرهما ، قال هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازى وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه ، وهو قول - لاشك - مبالغ فيه ، ولكنه يعطينا فكرة عن ثقافة أبى يوسف ، الذى تمرس . بالأدب : إلى جانب نبوغه فى الفقه والتشريع ، وسنرى أثر هذه الثقافة فى تأليفه . ولم يحفظ التاريخ من أسماء شيوخه فى هذه المواد إلا محمد بن إسحق المشهور بتأليفه فى تاريخ المغازى ، وقد تكون شهرة أبى يوسف بالفقه ، وقيامه بأمر القضاء صرفت الناس عن الاهتمام بمعرفة أساتذته فى غير هذه المادة .

ولعل أعظم أساتذته أثراً فى حياته وتوجيهها الإمام أبو حنيفة ثابت بن النعمان ، فهو الأستاذ الذى أخذ بيده وأعانه حتى شق لنفسه طريق الحياة ، ووصل إلى المجد العلمى وإلى أسمى مناصب الدولة بعد الوزارة ، وهو منصب قاضى القضاة ، ومن المرجح أنه اتصل بأستاذه ، وهو حدث صغير السن ، وأن أستاذه لمح فيه دلائل النجابة ، فشجعه على طلب العلم ، والاستمرار فى الدرس ، بل ربما كان قد ساعده بالمال ، إذا صح ماورواه أبو بكر الخطيب البغدادى فى كتابه : تاريخ بغداد ، أن أبا يوسف قال : كنت أطلب الحديث والفقه ، وأنا مقل رث الحال ، فجاءنى أبى يوما ، وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال يابنى ، لاتمد رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستمر وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب ، وأثرت طاعة أبى ، فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه ، وسأل عنى ، فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لى : ماشغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش ، وطاعة والدى ، فجلست ، فلما انصرف الناس دفع إلى صرة ، وقال استمتع بها ، فنظرت ، فإذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الحلقة ، وإذافرغت هذه فأعلمنى ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى ، وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفادها حتى استغنيت وتمولت ، ويقال إن أباه مات وهو صغير ، وأن ذلك الحادث كان مع أمه .

أخذ أبو يوسف عن أبى حنيفة وعرف الأستاذ مافى تلميذه من ذكاء فنماه وشجعه ، وظل التلميذ والأستاذ متلازمين طول حياتهما ، يضمر التلميذ لأستاذه عظيم الحب والاجلال ، ويضمر الأستاذ لتلميذه عظيم الحب والتقدير ، فأبو يوسف يحمل علم أستاذه ويبين وينشر مذهبه ، ويوضح حجته فى حياته وبعد مماته ، ويذكر اسمه مقروناً بالتجلة والاعظام ، ويؤلف الكتب كما يروى - فى أصول الفقه ، على مذهبه ، حتى قال عمار بن أبى مالك : ما كان فى أصحاب أبى حنيفة مثل أبى يوسف ، لولا أبو يوسف ماذكر أبو حنيفة

ولامحمد بن أبى ليلى ، ولكنه هو الذى نشر قولهما وبث علمهما ، وكان أبو حنيفة من ناحيته يقدر هذا التلميذ الممتاز ، روى حماد بن أبى حنيفة قال : رأيت أبا حنيفة يوما ، وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولا إلا فسره زفر ، ولا يقول زفر قولا إلا فسره أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده ، فضرب بها فخذ زفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة بلدة فيها ، أبو يوسف .

صلة الاحترام التى كانت بين هذين الإمامين تجعلنا نرفض فى صراحة تلك الرواية التى رواها ابن خلكان : أن أبا يوسف مضى ليسمع المغازى ، وأخل بمجلس أبى حنيفة أياما ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف ، من كان صاحب راية جالوت ، فقال له أبو يوسف : إنك إمام ، وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رءوس الملأ : أيما كان أولا : وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر ؟ فأمسك عنه .

نرفض تلك الرواية ، ونعتقد أنها موضوعة من أعداء الرجلين ، ومن العجب أنها منسوبة إلى الشافعى ، فأبو حنيفة أوسع عقلا من أن ينكر على تلميذه طلبه لسيرة الرسول ومغازيه وهما من أعظم منابع التشريع ، وأبو يوسف كان أعظم أدباً من أن يشهر بأستاذه هذا التشهير الكاذب .

وقد رحل التلميذ وأستاذه إلى بغداد بعد إنشائها ، وعرض المنصور منصب القضاء على أبى حنيفة فأشار عليه أبو يوسف أن يقبل هذا المنصب ولكن أبا حنيفة أبى ، إيثاراً منه للخلوص للعلم والدرس ، أما أبو يوسف فقد كان اتجاهه فى الحياة أن يتبع قواعد الدين فى إخلاص على ألا يحرم نفسه لذة الحياة ومتعتها وجاهها ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : رءوس النعم أولها نعمة الإسلام التى لا تتم إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها ، وهو لذلك لا يجد غضاضة فى أن يجمع بين الدين والدنيا ، وسنرى أنه وفق فى ذلك إلى أبعد مدى .

تثقف أبو يوسف وتبحر فى العلم ، فجلس للتدريس ببغداد ، وأخذ عنه

تلاميذ نابهون كان من بينهم محمد بن الحسن الشيبانى راوى مذهب أبى حنيفة وأبى يوسف فى كتبه المبسوطة والزيادات والجامع الكبير والجامع الصغير والامام أحمد بن حنبل ، وأقبل عليه التلاميذ يغترفون من بحار علمه ، وارتقى كثير من الأئمة روايته فى الحديث ، وطعن غيرهم فى روايته ، قال محمد ابن جرير الطبرى : « وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأى عليه ، وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » ولكن هذه الأسباب التى من أجلها تحامى هؤلاء القوم رواية حديثه ليس لها فى واقع الأمر هذا السلطان القوى الذى يحول بيننا وبين الثقة بأحاديثه فمهما غلب عليه الرأى ، ومهما صحب السلطان وتقلد القضاء ، فلن يكون ذلك كله — فى رأيى — حافزا له إلى أن ينسب إلى الرسول مالم يقله ، ولكن لعل تحاميهم الحديث عنه سببه ان غلبة الرأى عليه تجعله قد يعتمد على حديث ضعيف ، يجد فيه مايؤيد رأيه ، ويوافق مذهبه ، فيستحسنه ، وسنرى عند دراسة كتاب الخراج ماقد يكون سببا من أسباب هذا التحامى .

مات أبو حنيفة عام مائة وخمسين وترك تلميذه أبا يوسف يذيع علمه ، وينقل مذهبه ، ولم يرو التاريخ أن أبا يوسف تقلد أمراً لأبى جعفر المنصور ، فلما تولى المهدى كان نجم أبى يوسف يرتفع واسمه يذيع ، فولاه القضاء سنة ستة وستين ومائة ، وظل فى منصب القضاء — على ما يظهر — حتى توفى المهدى ، وخلفه الهادى الذى لم يبق طويلا فى الحكم ، وجاء الرشيد فأحل أبا يوسف مكانا علياً . أجله وأكرمه ، وكان عنده حظيا مكينا ، يجالسه ، ويأكل معه على مائدته . فولاه القضاء وجعله قاضى القضاة ، وهو منصب لم يشغله أحد قبل أبى يوسف ، فلم يعرف فى تاريخ الخلفاء الراشدين ولا فى زمن بنى أمية وخلفاء العباسيين قبل الرشيد من أطلق عليه ذلك اللقب ولا من تولى هذا المنصب ، فلم يكن لقاضى عاصمة الخلافة فى تلك العصور ميزة على سائر القضاة ، وليس له رأى فى اختيارهم ، حتى إذا جاء البرامكة فى أيام هرون الرشيد أدخلوا هذا النظام فى الدولة الاسلامية ،

نقلا عن نظام الفرس الذين كان لهم قاضى قضاة ، جاء فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ . ويقال إن سابور لما مات موبذ موبذان وصف له رجل يصلح لقضاء القضاة ، فكلمة موبذ موبذان فى لغة الفرس معناها قاضى القضاة .

وقد روى كثير من المؤرخين أن أبا يوسف هو أول من دعى بقاضى القضاة ؛ قال المقريزى . فلما قام هرون الرشيد بالخلافة ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة بعد سنة سبعين ومائة ، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف ، وهذا المنصب يشبه منصب وزير العدل فى عصرنا الحاضر .

وكان من أعمال أبى يوسف أن يمر على القضاة ويتعرف أحوالهم وسيرهم ؛ ومن أظرف ما وقع له ما رواه ابن خلكان من كتاب اسمه اللفيف أن عبد الرحمن بن مسهر ، كان قاضيا على المبارك وهى بليدة بين بغداد وواسط ، فبلغه خروج الرشيد إلى البصرة ، ومعه أبو يوسف القاضى فى الحراقة . فقال عبد الرحمن لأهل المبارك . أثنوا على عند أمير المؤمنين ، وعند القاضى أبى يوسف ، فأبوا عليه ذلك ، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود ، وجاء إلى النهر ، فلما أقبلت الحراقة ، رفع صوته ، وقال . نعم القاضى قاضينا ، قاضى صدق ، ثم مضى إلى مكان آخر ، وقال مثل مقالته الأولى ، فالتفت الرشيد إلى أبى يوسف وقال . يايعقوب ، هذا شر قاض فى الأرض ، قاض فى موضع لايثنى عليه إلا رجل واحد ، فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضى يثنى على نفسه ، قال . فضحك هرون ، وقال هذا أظرف الناس ، هذا لا يعزل أبداً . وقد تكون هذه القصة من نسج الخيال ، يراد بها السخرية من هذا القاضى المسكين .

اتصال أبى يوسف بالقضاء قبل هرون الرشيد هو ما عليه أكثر المؤرخين ، وهو ما اعتمده البغدادى فى كتابه . تاريخ بغداد ، وما يشتم من أقوال ابن خلكان ، وإن كان قد روى رواية أخرى يفهم منها أن أبا يوسف

لم يل القضاء لغير الرشيد ، ولم يكن الرشيد يعرفه قبل ذلك. قال ابن خلكان حكى على بن المحسن التنوخى عن أبيه عن جده قال . كان سبب اتصال أبى يوسف بالرشيد أنه كان قد قدم بغداد بعد موت أبى حنيفة رضى الله عنه ، فحنث بعض القواد فى يمين ، فطلب فقيها يستفتيه . فجيء له بأبى يوسف فأفتاه أنه لم يحنث ، فوهب له دنانير ، وجعل له داراً بالقرب منه ؛ ودخل ذلك القائد يوما على الرشيد ، فوجده مغموما ، فسأله عن سبب غمه ، فقال شيء من أمر الدين قد أحزننى ، فاطلب لى فقيها كى أستفتيه. فجاءه بأبى يوسف قال أبو يوسف . فلما دخلت إلى ممر بين الدور ، رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك ، وهو فى حجرة محبوس ، فأومأ إلى بإصبعه مستغيثا ، فلم أفهم منه إرادته ، وأدخلت إلى الرشيد فلما مثلت بين يديه ، سلمت ووقفت ، فقال ما اسمك ؟ فقلت . يعقوب ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال . ما تقول فى إمام شاهد رجلا يزنى ؟ هل يحده ؟ قلت لا ، فحين قلتها سجد الرشيد ، فوقع لى أنه قد رأى بعض أهله على ذلك . وأن الذى أشار إلى بالاستغاثة هو الزانى . ثم قال الرشيد . من أين قلت هذا ، ؟ قلت ، لأن النبى ﷺ قال أدرءوا الحدود بالشبهات ، وهذه شبهة يسقط الحد معها ، قال وأى شبهة مع المعاينة ؟ قلت . ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحدود لا تكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ، فسجد مرة أخرى ، وأمر لى بمال جزيل ، وأن ألزم الدار ، فما خرجت حتى جاءتنى هدية الفتى ، وهدية أمه ، وجماعته ، وصار ذلك أصلا للنعمة ، ولزمت الدار ، فكان هذا الخادم يستفتينى ، وهذا يشاورنى ، ولم يزل حالى يقوى عند الرشيد حتى قلدنى القضاء .

الحكم فى مثل هذه القضية هو ما حكم به أبو يوسف ، فليس للإمام أن يحكم بعلمه ، بل لابد من شهادة الشهود ، ولكن القصة التى أمامنا منقوضة من أساسها ؛ فمن الثابت أن أبا يوسف ارتحل إلى بغداد مع أستاذه أبى حنيفة منذ أيام المنصور كما أسلفنا ، وقد أشار عليه بتولى القضاء ؛ ومن غير المعقول

أن يظل أبو يوسف ، وهو أنجب تلاميذ أبي حنيفة ، بل يقول عنه طلحة ابن محمد بن جعفر : إنه أفقه أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد فى زمانه ، وكان النهاية فى العلم والحكم والرياسة والقدر ، أقول : إنه من غير المعقول أن يظل هذا العالم الممتاز ، وقد قارب الستين من العمر مجهولا من الرشيد ، والقصة فى حوادثها بعيدة عن العقل ، فإنى أستبعد أن يرتكب إنسان هذا الإثم فى مكان يظن أن الرشيد يغشاه ، ومن هذا الذى يصيد تحت أنف الأسد ؟!

هذه قصة موضوعة أشبه بأقاصيص ألف ليلة وليلة ، وقد يكون الفقهاء واضعى تلك القصة ليبينوا الحكم فيها ، كما نضع نحن الأقاصيص للتلاميذ لأهداف معينة . وفى تاريخ أبى يوسف كثير من هذه القصص التى لا أشك فى أنها مخترعة لا أساس لها .

تولى أبو يوسف قضاء القضاة ، فأحب أن يجعل للعلماء والقضاة سمة خاصة تميزهم ليحفظ لهم وقارهم ، فيقال إنه غير لباس العلماء إلى هيئة خاصة ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا تمييز فيه بين فرد وآخر ، وكان أبو يوسف شديد المحافظة على كرامة القضاء ، حتى ليتجنب ما يمس هذه الكرامة ، وما ينزل بها لدى الناس ، ذكر صاحب الاغانى فى كتابه أن ابن جامع قدم من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ، يلبس لباس الفقهاء ، فبينا هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه أقبل أبو يوسف القاضى ، فلما وقعت عينه على ابن جامع أخذ يحدثه ، ويسأله عن أخبار مكة ، حتى إذا انصرف عنه وأخبر باسمه ومهنته ، جاء أبو يوسف فى اليوم التالى ، ونظر اليه فتنكبه ، وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به ، وكان ابن جامع جهيراً ، فرفع صوته قائلا : ياأبا يوسف ، مالك تنحرف عنى ؟ أى شىء وأنكرت ؟ قالوا لك : إنى ابن جامع المغنى ، فكرهت مواقفتى لك ؟! أسألك عن مسألة ، ثم اصنع ماشئت ، ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون ، فقال : ياأبا يوسف ، لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه قوله :

يا دارمية بالعليـــاء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأمد

أكنت ترى بذلك بأسا ؟ قال : لا ، قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : ياأبا يوسف ، رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ، أعفنا من ذلك ، قال: يا أبا يوسف أنت صاحب فتيا ، مازدته على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ، ووصل إلى القلب ، ثم تنحى عنه ابن جامع .

لاريب عندى فى أن الحق مع ابن جامع ، ولكن محافظة أبى يوسف على أبهة القضاء هو الذى دفعه إلى مافعل ، مع أن أبا يوسف لم يكن من المتزمتين - كما سنرى - بل كان يكره التعصب ، واسع الصدر .

تاريخ أبى يوسف فى القضاء تاريخ مشرق ، وقد أعانه على النبوغ فيه ذكاء مفرط ، وإطلاع واسع وثقافة ممتدة الجوانب واسعة الأطراف ، وسنرى عندما ندرس كتابة الخراج ما كان يعتمد عليه من الأدلة ، وما كان يسوقه منها لاستنباط أحكامه ، وسنرى إن كان مجتهداً مطلقا أو مجتهداً فى مذهب أبى حنيفة فحسب ، فإن دراسة هذا الكتاب سترينا خطة أبى يوسف

مواهب أبو يوسف ومؤهلاته ونظرته إلى الحياة وقد تحدثنا عنها سابقا ، فذكرنا أنه كان يجد المثل الأعلى فى الجمع بين الدنيا والدين - دفعته إلى أن يصل إلى هذا المنصب الممتاز الذى جمع فيه الجاه العريض والثراء الضخم ، وقد انقسم الناس فى أمره ، كما ينقسمون فى أمر كل عظيم ، فمن قائل : إنه وصل إلى المجد بجدارة وكفاءة ، لم يفرط فى أمر دين ، من أجل سلطان ولا وزير ، وهؤلاء هم الجم الغفير من المؤرخين ، وهناك أخرى ، إما حاسدة له على ماوصل إليه من المجد وبعد النفوذ ، وإما متزمتة ترى أن العالم الحق هو من ينصرف إلى العلم لا يبغى به غير وجه الله ، وقد غاله بعضهم فى كراهية أبى يوسف وذمه ، حتى نفى أنه يصلح للفقه ، ونسبه إلى التصحيف والجهل ، وتجد فى كتاب تاريخ بغداد كثيرا من هذه الآراء فيروى عن بعضهم أنه كان يقول : إنى لأستثقل مجلساً فيه ذكر أبى يوسف ، وقال رجل لابن المبارك : أيهما

أصدق : أبو يوسف أو محمد ؟ قال : لاتقل : أيهما أصدق ؟ قل : أيهما أكذب ؟ وغالى بعضهم فى ستة وست أستاذه أبى حنيفة ، ولقد تورع ابن خلكان عن نقل هذه الآراء فى كتابه . ولكن يظهر لى من روايات البغدادى أن الطائفة الناقدة لأبى يوسف فى حياته كانت طائفة لها حسابها ، وقد ناله منها بعض الأذى .

ولعل أكبر ماجلب عليه التعصب ضده هو أخذه بالرأى والقياس ، وأعماله الفكر فيما بين يديه من النصوص ، ولكنه - كما سنرى - كان يلجأ إلى النص ، ويتخذه حجته فى أكثر الاحيان ، ولا يخالفه مخالفة صريحة ، ويحب أصحاب الحديث ويميل إليهم ، وهو إلى جانب ذلك كله ، ماكان يصدر فى رأيه إلا عن عقيدة وإيمان ، وكان هذا الايمان راسخا فى قلبه ، لاتعصف به نوازغ الشهوات ، وإن مقدمة كتابه . الخراج ، والكتاب نفسه ليدلان على نفس مؤمنة حقا ، مخلصه فى إيمانها ، وكل الروايات التى رويت عنه ، لا سيما فى أخريات أيامه تدل على نفس مطمئنة لما قدمت فى حياتها . قال محمد بن سماعة . سمعت أبا يوسف فى اليوم الذى مات فيه يقول . اللهم إنك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت به بين عبادك متعمداً ، ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ، وكل ماأشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ، ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

كان أبو يوسف ذكيا يستطيع أن يستنبط من النص مايستطيع سواه ان يستنبطه ، سأله مرة احد رواة الحديث عن مسألة فأجابه فيها ، فقال له من اين جئت بهذا ؟ فقال ابو يوسف : لحديثك الذى حدثتنا به انت ثم ذكر له الحديث ، فقال له : يايعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث قبل ان يجتمع ابواك ، فما عرفت تأويله حتى الآن .

وكان الى جانب ذكائه حاضر البديهة ، يستطيع ان يتخلص بسهولة من المآزق التى فيها ، روى انه جىء وإلى ابى يوسف بمسلم قتل ذميا ، فأمر ان يقاد به ، وحدد يوما لذلك ، وأمر بالقاتل فحبس ، فلما كان اليوم الذى حدده

حضر أولياء الذمى ، وجىء بالمسلم القاتل ، فلما هم أبو يوسف أن يقول : قيدوه ، رأى رقعة قد سقطت فتناولها صاحب الرقاع ، وخنسها فقال له أبو يوسف ماهذه التى خنستها ، فدفعها اليه فاذا فيها أبيات شعر ، قالها أحد شعراء بغداد :

ياقاتل المسلم بالكافر جرت ، وما العادل كالجائر
يا من ببغداد وأطرافها من فقهاء الناس أو شاعر
جار على الدين أبو يوسف إذ يقتل المسلم بالكافر
فاسترجعوا ، وابكوا على دينكم واصطبروا فالأجر للصابر

فركب أبو يوسف إلى الرشيد وحدثه بالقصة وأراه الشعر ، فقال له الرشيد : اذهب فاحتل ، فلما عاد أبو يوسف إلى داره ، وجاءه أولياء الذمى يطالبونه بالقود ، قال لهم : ائتونى بشاهدين عدلين ، أن صاحبكم كان يؤدى الجزية ، فعجزوا فلم يحكم أبو يوسف بالقود .

لست هنا فى معرض حكم الدين ولا فى صدد بيان المذاهب المختلفة فى هذه المسألة ، ولكننى أريد فقط أن أبين سرعة بديهة قاضى القضاة ، فبهذه البديهة السريعة استطاع أن يتخلص من ورطة ربما أدت إلى ثورة ببغداد .

وإن شهرته بهذه البديهة السريعة جعلت الناس ينسبون إليه قصصا نجد بعضها مروياً فى كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام ، وفى كتاب تاريخ بغداد ووفيات الأعيان ، ومنها مالا يصدقه العقل ولا يطمئن إليه ، ولكن حسبنا أن نعلم أن ذلك العصر هو عصر الرشيد الذى تفنن فى تصويره أخيلة القصاص ، فاخترعوا ، ونسبوا إليه كل طريف عجيب ، ونال أبا يوسف من ذلك حظ غير يسير .

كان أبو يوسف غير متزمت فى الدين ، فهو كثيراً ما يخيرك بين أمرين ، إن فعلت واحداً منهما كنت غير آثم ، ولعل هذا من الأسباب التى حببت فيه الخلفاء وقربته منهم ؛ غير أننا نقف وقفة عند هذا الخبر الذى رواه أبو عبد الله اليوسفي من أن زبيدة زوج الرشيد كتبت إلى أبى يوسف :

ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء إلى أن يكون الحق فيه كذا ، فافتاها بما أحبت فبعثت إليه بهدية ثمينة . نقف عند هذا الخبر ، فقد يكون سلاحا فى أيدى أعدائه الذين يظنون أنه ما وصل إلى منصبه إلا بتتبعه ما يرضاه الأمراء وتلمسه العلل والأسباب لتبرير ما يعملون .

نقف عند هذا الخبر ، ولا نقطع بكذبه ، ولكننا نؤكد أن موافقته زبيدة - إن صحت - لم تكن موافقة هوى ، وليس ثم ما يمنع من أن يكون هوى زبيدة متفقا مع هوى الدين ، ومن المؤكد أنه لو كان ثمت خلاف بينهما لأثر أبو يوسف أن يميل إلى جانب الدين ، كما ينطق بذلك كتاب الخراج .

إلى جانب فضل أبى يوسف وعلمه ألمح أنه كان بخيلا ، فالروايات التى تروى عنه ، تؤكد هذه الناحية من نواحى أخلاقه ، وكان محبا للمال ، حتى ليتهمه أعداؤه بأنه كان يعطى أموال اليتامى مضاربة ، ويجعل الربح لنفسه .

ظل أبو يوسف قاضى القضاة طول المدة التى عاشها فى عهد هرون الرشيد ، ولعله فى هذه المدة لم ينقطع عن التدريس ببغداد حيناً ، وبالبصرة حيناً آخر ، وعاش سعيدا مكرما حتى إذا كان يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة ، صعدت روحه إلى خالقها ، وترك من بعده ابنه يوسف الذى كان قاضيا بالجانب الغربى من بغداد فى حياة أبيه وكتاب الخراج الذى ألفه لأمير المؤمنين هرون الرشيد .

(له بقية)

أحمد أحمد بدوى